

الباب الخامس

رفع الكروب التي لحقت بالمسلمين
فى مواجهاتهم مع الكفار والمشركين

لقد اتسمت مواجهات الكفار للمسلمين بالعنف والضاوأة، والشدة والقسوة من جانب الكفار؛ ذلك لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان متفوقين على المسلمين فى العدد وفى العدة، كما أن الشيطان كان يشعل نار التحريض فى نفوسهم؛ لأنه يرى فى المسلمين أعداء له كما هم أعداء للكافرين، ولم يكن هناك بد فى مختلف هذه المواقف من اتخاذ العدة وإعدادها، والمحاولة الجادة لامتلاك وسائل الدفاع والتغلب على الأعداء، والتفوق فى محاولة اكتساب المهارات وإحراز الأسباب المادية للنصر، وفى ذات الوقت العمل على تقوية الجانب الروحى والمعنوى؛ واستمطار رحمت الله بالدعاء، فى كل موقف بما يناسبه، فكان مدد الله يأتهم، وعنايته تلحظ أولياءه وجنده، ويجعل العزة والغلب والنصر فى جانب هذه القلة المؤمنة بربها، الواثقة من نصره، المقبلة عليه فى كل وقت وحين، فى كل حال وعلى أى حال.

وحينما نتصفح التاريخ المشرف للمؤمنين بالله وبرسوله، فإننا نجد أن الله - سبحانه وتعالى - قد أمدهم بمدده، وأفاض على أرواحهم الطاهرة من أسباب التوفيق ما جعل ألسنتهم تلهج بالدعاء لله رب العالمين، مما كان له أعظم الأثر فى تفريج هذه الكروب، ورفع أسباب الشدة والمعاناة، وهو ماسنحاول إظهاره وإبرازه فى الصفحات التالية.

١- دعاء النصر على الأعداء

دعاء النبى ﷺ عند عودته من الطائف:

لَمَّا اشْتَدَّ أَدَى قَرِيشَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقِبَ مَوْتَ زَوْجِهِ خَدِيجَةَ وَعَمَّهُ أَبِى طَالِبٍ، اتَّجَهَ إِلَى الطَّائِفِ عَلَيْهِ يَجِدُ قُلُوبًا تَسْتَجِيبُ لِدَّاعِىِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ غِلْظَةً

الكُفْرَ وَجَبَرُوتَ الكافرين، فالكفر لافرق بين مكبّه أو طائفه، ولا بين شرقه أو غربه، فالكفر كله مله واحده، فلما دعاهم إلى الله، ردوا عليه بخشونه وعنفوه وأغروا به العبيد والسوقة والسفهاء، فكان أن اتجه إلى ربه يُناجيه ويلتمس مرضاته في ضراعه وخشوع تمثلاً في هذا القول الكريم:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وكان ملاقاه رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أشد على نفسه مما لاقاه في يوم سواه، فقد سأله السيدة عائشة - رضى الله عنها - فيما يرويه البخارى ومسلم فقالت: أيا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟

قال: «لقد لقيت من قومك مالقيت، وكان أشد مالقيت يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق من الغم إلا وأنا بقرن الثعالب (اسم مكان)، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل - عليه السلام - فناداني فقال: إن الله قد سمع قومك وما ردوا عليك، وقد بعث الله لك ملك الجبال لتأمره بما شئت، قال ﷺ: فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني، إن شئت دمدمت عليهم الجبال، وإن شئت خسفت بهم الأرض، قال النبي ﷺ: لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد وحده لا شريك له».

٢- المسجد الأقصى وتفريج كرب النبي - صلى الله عليه وسلم

لقد لقي رسول الله ﷺ من قومه الأذى والعنت الكثير، فقد وقفوا أمامه حجر عثرة في سبيل نشر دين الله، وقد سلكوا في سبيل ذلك طرقاً كثيرة، سلكوا طريق الإغراء والمصانعة تارة فلم يفلحوا، وسلكوا طريق العنت تارة أخرى فباءوا بالفشل، كما سلكوا طريق الحصار والمقاطعة فيما هو معروف بمقاطعة الصحيفة، ولكنهم وجدوا في كل ذلك رجالاً بمعنى الكلمة، وجدوا رجالاً كلهم تصميم على المضي قدماً في طريق الهدى والنور، بعد أن نجاهم الله - تعالى - من الجاهلية الجهلاء، والرجعية النكراء، ومواقف الكفر في هذا أكثر من أن تحصى، ولكننا سنتناول واحداً منها في هذا المقام.

ففي صبيحة الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ من بيت الله الحرام بمكة إلى بيت المقدس، ثم العروج به إلى سدره المنتهى، وإلى ما هو أبعد منها شأواً، إلى مستوى سمع فيه صرير أقلام القدرة، فأفاض عليه ربه - سبحانه وتعالى - من الإشراقات والتجليات ما لا يقدر عليه إلا هو.

تقول «أم هانئ بنت أبي طالب» - رضى الله عنها -: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، نام عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبها (أيقظها) رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ: لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَيْنَ. ثم قام ليخرج فأخذتُ بطرف رداءه، فقلت: يانبي الله لاتحدث الناس فيكذبوك ويؤذوك، فقال: والله لأحدثهموه، قالت: فقلت لجارية لى حبشية: اتبعي رسول الله حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد فإننا لم نسمع بمثل هذا؟

فأخذ رسول الله ﷺ يخبرهم عن غير كانت لأناس من مكة، مرَّ بها رسول الله ﷺ في مسراه، فبين لهم النبي أوصافها، وذكر بعض أماراتها، وأنها ستقدم

وتدخل مكة ساعة كذا، وقد كان كلُّ (أى حدث كل) مذكّره لهم النبى الكريم .

أما أبو جهل ومن على شاكلته من مثيرى الضجة والفتنة، فقد كان رد فعلهم على هذا الأمر عنيفاً، فقد أخذوا يصفقون عجباً، ويصفرون طرباً؛ تكذيباً لهذا الأمر واستبعاداً، ونكاية فى رسول الله وعناداً، فذهب بعضهم إلى أبى بكر يستعديه على رسول الله ﷺ فأخبرهم أبو بكر بأن هذا الأمر من الأمور العادية، وأته يصدق النبى ﷺ فيما هو أبعد من ذلك، يصدقه فى خبر السماء يأتیه فى لحظة، وأخذ يفحمهم قائلًا: إنكم تلقبونه بالصادق الأمين، فلم يكن ليترك الكذب على الناس ليكذب على الله. ثم ذهب معهم أبو بكر وسأل رسول الله عن هذا الخبر، فأخبره إياه، فصدقه أبو بكر أمامهم قائلًا: صدقت يارسول الله، فقال له النبى ﷺ: وأنت يا أبا بكر الصديق.

وفى هذه الأثناء إذا بسائل يطرح على القوم سؤالاً عقلياً مؤداه: إذا كان محمد قد ذهب إلى بيت المقدس وصلى فيه فليصفه لنا!! نعم، فليصفه لنا...

ولاشك فى أن قائل هذا السؤال إن كان من المشركين فمقصده إحراج النبى ﷺ وأما إن كان القائل أبا بكر - كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات - فإن مقصوده أن يزيد القوم تصديقاً بخبر رسول الله ﷺ هذا عن السؤال وعن سائله..

أما عن النبى ﷺ فقد سبب له هذا السؤال كرباً عظيماً؛ حيث قد ورد عنه أنه قال: «فَكُرِبْتُ كَرْبًا مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ»، أى أن الكرب الذى تعرض له النبى آنذاك كان كرباً من نوع خاص؛ حيث لم يتعرض لمثل هذا الموقف من قبل، وهذا قول حق؛ لأن الإنسان الذى يطير فى زيارة هامة مثل هذه الزيارة، ليلتقى بمثل هذا الجمع الحاشد من الأنبياء والمرسلين، بل وليكون إماماً لهم، لا يكون عنده من الوقت، ولا من التفكير ما يصرفه فى تفقد هذا البيت والإعجاب به، ومعرفة تفاصيله، من نحو عدد أبوابه ونوافذه وأسطواناته وما إلى ذلك،

والذى أخرج النبى فى هذا الموقف وضاعف كربيه هو علمه بأن فى القوم أناساً يعرفون هذا المسجد بتفاصيله لكثرة زيارتهم لهذه المنطقة فى رحلتى الشتاء والصيف، يعرفونه لا على سبيل العبادة، ولكن على اعتبار أنه أثر يزار. ومن الذين يعرفون أوصافه كذلك أبو بكر الصديق - رضى الله عنه . . .

ولكن ياترى هل يمكن أن يترك الله نبيه فى هذا الكرب بدون تفريج؟! كلا، فى حديث البخارى: «لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر، فجلّى الله لى بيت المقدس، فطفقت أُخبرهم عن آياته (أماراته وعلاماته) وأنا أنظر إليه».

وهكذا فرج الله كرب نبيه ﷺ وأيده بهذه المعجزة الخارقة، إضافة إلى معجزة الإسراء والمعراج، فالذى أسرى بعبد لىلا إلى تلك البقعة قادر على أن يطوى لرسوله المسافات فىرى المسجد الأقصى عيانا بيانا وهو فى مكة فى وضح النهار، فالنبي قد أسرى الله به لىلا، والمسجد قد جىء به للنبي نهاراً، أو أن الله - سبحانه وتعالى - قد تجلى على حبيبه ﷺ فأصبح بصره يرى الأقصى بكامل تفاصيله وهو فى مكانه بأرض الشام، إن قلتَ هذا فصحيح، أو قلتَ ذاك فمليح، فأمر ربنا - تبارك وتعالى - بين الكاف والنون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون.

٢- تفريج كرب المؤمنين فى أعقاب غزوة أحد

لقد تجلت غزوة أحد عن جراحات كثيرة للمسلمين، فهى الغزوة التى شجَّ فيها وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وقتل فيها سبعون شهيداً من المسلمين، من بينهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - أسد الله وعم رسول الله، وقد حدث لهم ما حدث كنتيجة لمخالفة الرماة أمر رسول الله وانشغالهم بجمع الغنائم، الأمر الذى جعل الكفار يكرون عليهم ويُعملون فيهم النبل والسيف، ثم إن الله مَنَّ عليهم بعد ذلك وأمدهم بمدد من عنده.

وفى مُنْصَرَفَ المشركين من أحد بدا لهم أن يضعفوا الروح المعنوية للمسلمين، فقد أخذوا من هذه الغزوة درساً ألقى فى روعهم أن المسلمين مازالوا ضعافاً، وأن نصرهم على المشركين فى بدر الكبرى إنما كان ضربة حظ ولم يكن عن خبرة قتالية، ولا عن مدد من إلههم الذى يعبدونه، كان هذا النصر نوعاً من الحظ الذى حالههم، أما قوتهم الحقيقية فقد اتضحت فى يوم أحد، وهنا وقف أبو سفيان بن حرب وصاح بأعلى صوته قائلاً: موعدكم بدر من العام المقبل، حيث قتلتم أصحابنا، ووجه الكلام للنبي ﷺ فقال النبي : «عسى» وقال لأصحابه: «قولوا إن شاء الله» فقالوا مثلما أمرهم، وقد تخيل المشركون أن نهاية المسلمين وشيكة، وأنهم سيستأصلون شأفتهم قريباً وخلال عام، وأخذ المشركون يستعدون لمعركة يزعمون أنها ستكون حامية الوطيس، ومبالغة منهم فى إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين فإنهم لم يكفوا عن إرسال الرسل التى تشيع فى المدينة وبين جموع المؤمنين بالله أن أهل مكة يعدون العدة لملاحمة قريبة الوقوع، ووشيكة الحدوث.

أما ما كان من أمر النبي ﷺ والمؤمنين بالله معه فقد ألهمهم الله دعاءً طيباً، أخذوا يرددونه، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً، فقد أثرت فيهم جراحات أحد بحق وصدق، والقرآن المجيد يبين لنا ذلك فى قول الله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١) فلما كان العام المقبل، ندب رسول الله أصحابه للخروج للقاء المشركين فاستجابوا لله ولرسوله، فكانوا إذا لقوا أحداً من المشركين فيسألونهم عن قريش، فيقولون لهم: قد جمعوا لكم، يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرعبوهم؛ كى يفت ذلك فى عضدهم، فيقول المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١) فأصبح هذا الدعاء نشيدهم، فى هذه الرحلة التى خرجوا إليها على غير عادتهم، حتى قدموا

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

منطقة بدر، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد، وأما أهل مكة فقد سلط الله عليهم الخوف فأقعدهم بمكة ولم يتحركوا للوفاء بما قالوا في العام السابق، وبهذا فقد نَجَّى الله المؤمنين من هذا الكرب، ومن هذه الشدة، فلما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فانقلبوا سالمين من عدوهم ومن شدة المواجهة معه، وانقلبوا كذلك بفضل عظيم، فقد مرت في أيام الموسم وهم ببدر غير فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه، وتسمى هذه الموقعة السلمية «موقعة بدر الصغرى» تميزا لها عن موقعة بدر الكبرى التي وقعت قبل أحد، وقد حدد المشركون بدرًا لتكون مكان اللقاء حتى يغسلوا عن أنفسهم عار هزيمتهم ببدر الكبرى، ولكن هيهات هيهات!! وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ونصرت بالرعب».

فما أطيب هذا الدعاء الذي نجى الله به كثيراً من المكروبين!! فقد قاله إبراهيم الخليل - عليه السلام - حينما ألقى في النار التي أعدها له النمرود فصارت عليه برداً وسلاماً، وقالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قبيل تعرضها لحادث الإفك، فأنزل الله براءتها قرآناً يتلى إلى يوم الدين، وقاله سيدنا محمد ﷺ وأصحابه فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

٤- تفريغ كرب جيش العلاء بن الحضرمي

إن العلاء بن الحضرمي هذا هو أحد الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - والحضرميُّ والده هو: عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن مقنن بن حضرموت حليف بنى أمية، وكان لحضرموت هذا أخ يدعى «ميمون بن الحضرمي» وهو الذي حفر بئر ميمون، الموجودة بأعلى مكة، وقد احتفروها في الجاهلية.

وكان العلاء من فضلاء الصحابة، وقد ولاه رسول الله ﷺ البحرين بعد فتحه لها، ثم ولاه أبو بكر وعمر إياها كذلك، وقيل: إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد ولاه البصرة فمات قبل أن يصلها، وقد استعمل عمر على البحرين أبا هريرة بعد العلاء، وقد وجهه أبو بكر أيام حروب الردة إلى البحرين، فقاتل

أهلها حتى أظهره الله عليهم، وسلموا ما منعوا من الزكاة، وقد كان العلاء مستجاب الدعوة، وكان صاحب كرامات.

وقد كان لهذا الرجل من الكرامات الظاهرة، والدعوات المستجابة ما جعله مضرب المثل في ذلك، ولقد كان له بعض المواقف مع جيش المسلمين الذي أرسله رسول الله ﷺ لفتح بلاد البحرين، وكان تعداد هذا الجيش أربعة آلاف مقاتل، ما بين راكب فرس وراكب بعير، فلما كانوا بمنطقة الصحراء شَرَقِيَّ الجزيرة العربية، تصادف أن مياه الشرب التي معهم نفدت، وأشرف الجند حينئذ على الجهد المهلك، فلما أخبروا العلاء بهذا الخبر نزل عن جواده وصلى ركعتين لله - تعالى - ثم رفع يديه إلى السماء ودعا بهذا الدعاء: «يا عليم، يا حليم، يا على، يا عظيم: اسقنا» قال هذا بكل ثقة المؤمن وإقباله على ربه وثقته فيه، فاستجاب الله دعاءه، وما هي إلا لحظات حتى جاءت سحابة كأنها جناح طائر، فما كان من هذه السحابة إلا أن قَعَقَعَتْ (أى سمع لها صوت)، وأمطرت مطراً طيباً، أتاح لهذا الجمع الغفير أن يشربوا، وأن يسقوا دوابهم، وأن يتطهروا، فضلاً عن الماء الذى ملأوه فى آنيتهم، فحمدوا الله على ذلك وانطلقوا تحرسهم عناية الرحمن.

ولم يكد الجند يَفْرُغُونَ من هذا المأزق حتى صادفهم مأزق آخر أشد من سابقه، ذلك أنهم أتوا على أحد خلجان الخليج العربى التى تحول بينهم وبين ما يقصدون، ومما ضاعف من صعوبة ذلك أن هذا الخليج يبدو أنه مهجور، فليست هناك أمارات أو علامات لعبوره، ولم يجدوا كذلك أى أثر لسفن فى المنطقة يمكن أن تحملهم وأن تنقلهم إلى الجهة الأخرى، فهرعوا إلى العلاء قائدهم، فلم يتبرم بهذا الموقف، ولم يضق به ذرعاً، وإنما شرع على الفور فى مناجاة ربه، فصلى لله ركعتين، ودعاه بعدهما قائلاً: «يا عليم، يا حليم، يا على، يا عظيم: أجزنا» أى: يسِّرْ لنا أمر المرور والجواز، بلطفك وقدرتك، يامن يجيب وحده دعوة المضطرين، ثم أخذ هذا العبد الصالح الواثق بنصر الله،

أخذ بعنان فرسه وتقدم لاجتياز الخليج، وقال لجنده: جوزوا - أى: تقدموا - وعندئذ حدثت المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان، ولم تخطر لأحد قط على بال، فإذا بهؤلاء القوم بتقدمون بإبلهم وخيولهم على صفحة الماء الذى استحال تحت أرجلهم طريقاً مائياً سهل العبور والاجتياز، حتى إن الصحابى الجليل أبا هريرة - رضى الله عنه، راوى هذه الواقعة - ليقسم على صدق ذلك ويقول: «فو الله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف».

وإليك نص الواقعة كما رواها لنا أبو هريرة، حيث قال: «بُعِثَ العلاء بن الحضرمى فى جيش كنت فيهم إلى البحرين، فسلطنا مفازة، فعطشنا عطشاً شديداً حتى خفنا الهلاك، فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال: «يا عليم يا حليم يا على يا عظيم: اسقنا» فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقت علينا وأمطرتنا حتى ملأنا الآنية، وسقينا الركاب، ثم انطلقنا حتى أتينا على خليج من البحر، ما خيض قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعده، فلم نجد سفناً، فصلى العلاء ركعتين ثم قال: يا عليم يا حليم يا عليم يا عظيم: أجزنا، ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا - أى: اعبروا - قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف».

فإذا كان أصحاب موسى - عليه السلام - قد جعل الله لهم طريقاً فى البحر يَسَّاً وهو معهم، فإن أصحاب محمد ﷺ فى جيش العلاء بن الحضرمى قد ساروا بأرجلهم وخيولهم وإبلهم على وجه الماء وما ابتل منهم قدم ولا خف ولا حافر، فرضى الله عن الصحابة والتابعين، لقاء ما أخلصوا لله دينهم وأعمالهم، فنجاهم الله من كل شدة وضيق، وفرج عنهم الكروب، فصنعوا فى دنيا الناس المعجزات، وقدموا النماذج الرائعة لما ينبغى أن يكون عليه المؤمن من حسن الثقة بالله.

٥- تفريخ كرب المسلمين فى غزوة الخندق

من الكروب التى غَامَتْ بها دنيا المسلمين ما ترامى إلى أسماعهم عن هذا الجيش الجرار، الذى أعدّه مشركو مكة، وهو جيش عرمرم، يملأ السهل والجبل، فيه تجمعت كل قوى الشر والبغى والطغيان، مُيَمِّمة شطر المدينة المنورة، فى موقعة ظنُّوها الفاصلة، وظنوا أنهم بها سيُصَفُّونَ حساباتهم مع هذه الدولة الوليدة، وأنهم بهذا لامحالة قادرون على وأدها فى عقر دارها، وزين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم، إنه جيش الأحزاب، الجيش الذى أحكم الشرك إعدادَه وإمداده، تلبدت دنيا المسلمين بهذه الغيوم والهواجس، ولكنها مع كل هذا لم تحل دون سطوع شمس الحقيقة المطلقة الماثلة فى أذهانهم، ولم تخف شيئاً من وهج الإيمان فى النفوس، أو الثقة بالله، والاطمئنان إلى موعوده من الخير المحقق، والذى يتمثل فى النصر أو الشهادة، وربما كانت شدة كربهم متمثلة فى طول انتظارهم مقدِّم عدوهم على نحو ما أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى عن ابن المسيب قال: حضر النبى ﷺ يوم الأحزاب وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب، وحتى قال النبى ﷺ: «اللهم إنى أشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبَد».

وهنا وبعد أن أدرك النبى ﷺ مدى ما بلغ الكرب من أصحابه، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يرفع أكف الضراعة والدعاء إلى الله العلى القدير، وهكذا كان حاله فى كل نازلة، وفى كل أمر مهم شديد، ولقد جاء فى دعاء النبى ﷺ فى تلك الأثناء ما رواه جابر بن عبد الله الأنصارى - رضى الله عنه - قال: دعا رسول الله ﷺ فى مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء، بين صلاتى الظهر والعصر، فعرف الصحابة البشر فى وجهه، وهنالك توجه النبى ﷺ إلى رب العالمين قائلاً ما طالعنا به كتب السيرة النبوية: «يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف همى

وغمى وكربى، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى، اللهم مُنْزِلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

كما أن المسلمين سألوا النبى الكريم قائلين: هل من شىء نقوله فقد بلغت الروح الحلقوم؟ فقال لهم النبى ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا» فقالوا ذلك ولَظُّوا بالدعاء إلى الله - تعالى - .

ولقد تمثل تفريخ كرب النبى ﷺ وصحبه الكرام فى تلك البشارة التى جاء بها جبريل - عليه السلام - فقد بشر النبى بأن الله سيرسل على المشركين ريحاً وجنوداً من عنده، ولقد استجاب الله لرسوله الكريم، فأرسل عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، وهزمهم الله تعالى من غير قتال، فانهزموا خائفين، حتى إن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، قاما فى مائتى فارس فى ساقية عسكر المشركين مخافة الطلب، وكانت الريح التى هبت عليهم رِيحَ الصَّبَا، فقلعت الأوتاد وأطفأت النيران، وأكفأت القدور على أفواهها، وألقت عليهم الأخيصة، وسَفَّتْ عليهم التراب، وَرَمَتْهُمْ بالحصباء، وسمعوا فى جوانب معسكرهم التكبير، وقعقة السلاح، فهربوا، وتركوا متاعهم، فغنمه المسلمون، ولقد نزل فى بيان ذلك قول الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَقَوْلُهُ : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢)﴾ .

ويقول جابر - رضى الله عنه - : فلم ينزل بى أمر مهم غائظ إلا توخيت تلك الساعة من ذلك اليوم فدعوت الله فأعرف الإجابة. أى أن جابرا كان يتوخى

(١) سورة الأحزاب : ٩-١١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٥ .

الدعاء للكرب فى يوم الأربعاء بين صلاتى الظهر والعصر، وهى الساعة التى استجيب فيها لرسول الله ﷺ على الأحزاب .

أرأيت أيها القارئ الكريم، كيف تكون حاجة تفريج الكرب إلى الإلحاح فى الدعاء؟! فهذا هو النبى الكريم ظل يدعو ربه فى ضراعة المختبين، وإيمان الخاشعين ثلاثة أيام، حتى استجيب له؟! فإذا حزبك أمر، أو تعرضت لمكروه، فما عليك إلا أن تتلمس الأوقات الفاضلة، وتجتهد فيها بالضراعة والدعاء، وحذار من تسرب اليأس والقنوط إلى نفسك باستبطاء الدعاء، واعلم أن الله يحب عبده اللحوح، واعلم كذلك أن انتظار الفرج عبادة، فلك فى رسول أن الله الأسوة والقُدوة الطيبة، فاللهم إنا نسألك بحق السائلين عليك، أن تشملنا بعنايتك ورعايتك فى كل حال وعلى أى حال، وأن تحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ياسميع يابصير .

٦- تفريج كرب المؤمنين فى غزوة حنين

وقعت غزوة حنين فى السنة الثامنة وبعد فتح مكة؛ حيث إن هوازن ثقيف لما سمعت بفتح مكة وما فتح الله به على رسوله، فقام مالك بن عوف النصرى، فاجتمعت إليه هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر وناس من هلال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ففتح الله بهم مكة، فكان عددهم اثنى عشر ألفاً، ولقد وقع فى روع بعض جنود الإسلام أن النصر آت لا محالة اعتماداً على العدد، وهو ما بينه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١) وفى أودية تهامة واد يقال له حنين، وهو واد صعب الانحدار، سبقت هوازن وحلفاؤها إلى ذلك الوادى فكمنوا فى شعبه وأحنائه ومضايقه وتهيأوا واستعدوا، ولما وصل المسلمون وادى حنين هذا

(١) سورة التوبة : ٢٥ .

انحدروا منه انحذاراً، وفي عماية الصبح شدت هوازن على المسلمين شدة رجل واحد، وهنا وقع المسلمون في كرب شديد، وضيق وحر ج فكروا راجعين لايلوى أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين الناس؟ هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وقال النبي للعباس: يا عباس اصرخ: يامعشر الأنصار، يامعشر أصحاب السَّمرَة، فأجابوا ليك ليك، حتى اجتمع حول النبي منهم مائة، وقد وقع القوم في كرب عظيم، وهم وغم شديد.

ولقد كان النبي ﷺ يركب بغلته «لدل» وتسمى «البضاء» أيضاً، وهى التى أهداها له فروة بن نعامه، وقد أورد السهيلي والطبراني فى الأوسط من حديث أنس، وفيه من حديث شيبه بن عثمان أن النبي ﷺ قال يوم حنين لعمه العباس: «ناولنى من البطحاء» أى: ناولنى حفنة من تراب الأرض، فأفقَه الله البغلة كلامه، أى: فهمت كلام النبي فانخفضت به حتى كاد بطنها يمسُّ الأرض، فتناول رسول الله ﷺ من الحصباء، فنفع في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه، حم. لايتصرون» وهنا يقول جبير بن مطعم فيما رواه عنه ابن إسحاق: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادى، لم أشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم، ويقول أنس - رضى الله عنه-: «فانهزم القوم وما رميناهم بسهم، ولاطعنهم برمح، ولاضربناهم بسيف».

وبهذا فقد فرَّج الله كرب جيش المسلمين، ببركة النبي الكريم، وما يتحلى به من رباطة الجأش، والثبات على الأمر، ويفضل دعائه الوجيز الموجز الذى تفتحت له أبواب السماء، ونزلت جنود الله تملأ الوادى، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ليصدق على الناس موعود الله إذ يقول: ﴿... ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ

جَزَاءُ الْكَافِرِينَ»^(١) أرأيت - أيها القارئ الكريم - كيف تكون عاقبة الاغترار بالقوة؟؟ إنها تفت في العضد، وتفرق الصفوف، وتوهن العزائم، أما التواضع والخضوع لله فإنه يعود بأطيب الثمرات، ويوحد الصفوف، فتلتقى القلوب على الهدف السامى النبيل، ويستمطر العباد بها شآبيب رحمة الله، فلا يلبث فرج الله القريب أن يدرك المضطرين، وقد لقنتهم التجربة درساً لا ينسى.

فاجعلنا اللهم من عبادك المتواضعين، وافتح لنا بالتواضع أبواب الوصول، ومُنَّ علينا مع الوصول بالقبول، يامن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

٧- تفريغ كرب حذيفة بن اليمان في غزوة الأحزاب

إن الصحابىَّ الجليل سيدنا حذيفة بن اليمان له منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ فكان كاتم سرّه، حتى إن الرسول قبل لحاقه بالرفيق الأعلى قد ترك عنده بيانا بأسماء المنافقين الذين يسكنون المدينة، وإنما حمّله الرسول هذه الأمانة؛ لأنه كان دائماً يسأل النبى عن الشر مخافة أن يدركه، وهذا بخلاف ما تعارف الناس عليه من السؤال عن الخير حتى يستكثروا من فعله، وهذه النزعة لدى «حذيفة» تذكرنا بقول الشاعر:

عرَفْتُ الشرَّ لا للشرِّ لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشرَّ يقع فيه

وأما عن الشدة والكرب الذى وقع فيه حذيفة يوم الأحزاب فهو ما أخرجه البيهقى من عدة طرق، حيث يقول حذيفة عن هذا المشهد: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة؟»

فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم قال: يا حذيفة قم فأتنا بخبر القوم، وهنا يحدثنا حذيفة عن الشدة التى وقع فيها حينئذ، فقد قال له النبى

(١) سورة التوبة : ٢٦.

ﷺ: أما سمعت صوتي؟ قال: بلى، قال: فما يمنعك أن تجيئني؟ قال: البرد، ولكنه مع هذه الشدة والخوف والبرد كان لا يستطيع أن يعصى لرسول الله أمراً، فقد قال في رواية أخرى: يارسول الله ما قمت إليك إلا حياء منك من البرد، وهنا أدرك النبي ما قد انتاب حذيفة من كرب وشدة، فما كان منه إلا أن دعا له فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته» وقال له أيضاً: «لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع» قال: فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرأ (أى برداً) في جوفى إلا خرج من جوفى، فما أجد منه شيئاً، فدخلت العسكر، فإذا الناس في عسكرهم يقولون: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، والريح تضربهم بها، ثم رجعت، فلما انتصف بى الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارساً مُعْتَمِنِينَ، (أى عليهم العمائم على رؤوسهم) فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

والطريف فى هذا الموقف أن فرج حذيفة كان بقدر أداء مهمته، حيث يقول: فمضيت كأنما أمشى فى حمام، ورجعت كأنما أمشى فى حمام، ثم أصابنى البرد حين فرغت، ويقول أيضاً: فوالله ما عدا أن رجعت حتى راجعنى القر، وجعلت أقرقف (أى من شدة البرد) وأنزل الله قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا» (١).

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله ﷺ لسيدنا حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - نافع لكل مكروب يريد خدمة دينه ابتغاء مرضاة الله، وحباً فى رسول الله ﷺ ويمكن للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء لنفسه قائلاً: «اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى ومن تحتى».

(١) سورة الأحزاب : ٩ .

ولما أصاب حذيفة البرد بعد أن رجع إليه رسول الله فضل عبادة كانت عنده يصلى فيها، فلم يزل نائماً حتى الصباح، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «قم يا نومان».

٨- تضريح كرب سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية

إن الصحابيَّ الجليلَ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ واحدٌ من الصحابة الأجلاء، الذين دخلوا الإسلام مبكرين، فيقول عن نفسه: «لقد أتى علىَّ يومٌ وإنى لثُلُثُ الإسلام» وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله، وهو الوحيد الذي افتداه الرسول بأبويه؛ حيث قال له في معركة أحد: «ارم سعد، فذاك أبي وأمي» وهو الذي كان النبي ﷺ يباهى به ويقول: «هذا خالي، فليُرني امرؤُ خاله»؛ وذلك لأن جدَّ سعد - واسمه أهيب بنُ مناف - كان عمَّ السيدة آمنه، والدَّة الرسول ﷺ.

وكان سعد بن أبي وقاص من أشجع فرسان العرب والمسلمين، وكان له سلاحان ماضيان: هما رُمحُه، ودَعَاؤُه، فإذا رمى في الحرب عدواً أصابه، وإذا دعا الله دعاءً أجابه، وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ له، فحينما رأى الرسول ﷺ منه ذات يوم ما سرَّه وأقرَّ عينه، ما كان منه إلا أن دعا له قائلاً: «اللهم سدِّدْ رميته، وأجب دعوته».

وكان سعد - رضى الله عنه - كثير البكاء من خشية الله، وكان موفقاً مقبولا، فكما كان مستجاب الدعوة إذا دعا الله النصر أعطاه إياه، كان عفَّ الطُّعْمَة، عفَّ اللسان، عفَّ الضمير، وهو المبشِّرُ بالجنة، وهو فارس بدر وأحد، ولقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ومن الكروب التي عاشها ابن أبي وقاص كربُ عاناه خوفاً على الإسلام والمسلمين، إيماناً منه بجسامة المسئولية وخطورها، فبعد موقعة القادسية التي انتصر فيها الإسلام نصراً عزيزاً مؤزراً بقيادة سعد بن أبي وقاص، ما كان من الفرس إلا أن تجمعت فلولُ جيشهم وبقاياهم استعداداً لخوض معركة فاصلة في

«المدائن» وقد كان الفاصل الزمني بين القادسية وبين معركة المدائن ما يقرب من عامين، فما كان من سعد إلا أن قَيَّمَ الموقف، وأعاد حساباته في ضوء إيمانه بالله، وخوفه على الإسلام والمسلمين، وحرصه على مواصلة الزحف وتقدم الراية دوماً إلى الأمام، وكان من شيمة سعد أن إيمانه وتصميمه ليتألقان في وجه الخطر، ويتسوران المستحيل في استبسال عظيم، رأى سعد أن الوقت ليس في صالحه، ولكن ماذا يفعل؟! إن بينه وبين العدو مانعاً مائياً يشكل له خطراً، إنه نهر دجلة، فاتخذ قراره بالعبور، وكان عليه أن يؤمِّنَ مكان الوصول في الضفة الأخرى التي يربط فيها العدو، إن المهمة صعبة، وكرهه يزداد لحظة بعد لحظة، وسرعان ما لمعت في ذهنه المتوقد فكرة جبارة، فنادى قائدين من قواده الكبار، هما «عاصم بن عمرو» و «القعقاع بن عمرو» فأمر عاصماً على كتيبة أطلق عليها «كتيبة الأهوال»، وأمر القعقاع على كتيبة أخرى أطلق عليها «الكتيبة الخرساء» ودفع بهما إلى المقدمة، حتى إن هاتين الكتيبتين خاضتا الأهوال واستطاعتا بفضل الله الوصول إلى الهدف وتأمين منطقة وصول الجيش الباسل العابر بإذن الله.

وقد تمثل تفريج كرب سعد وأصحابه، بل تفريج كرب الأمة الإسلامية جمعاء في هذا المشهد الرائع، وفي تلك اللحظة الفريدة، التي توقف الزمان عندها شاخصاً، إنها لحظة العبور المجيد، فآلهم الله هذا القائد دعاءً قرآنياً عظيماً لم يلبث أن أمرَ سائر الجيش بترديده، فتعالت صيحة الحق ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا في دجلة كأنما يسرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين، وجعل الناس يتحدثون وهم يسرون على وجه الماء كأنهم يسرون على وجه الأرض، طمأنينة بالله، وثقة في موعوده بتأييده ونصره... منظر يجل عن الوصف، أذهل سلمان الفارسي رفيق سعد في المعركة؛ حيث لم يكذ يرى الجيش العابر الصابر على هذا النحو حتى أخذ يضرب كفاً على كف من شدة الدهشة والغبطة ويقول: «إن الإسلام جديد، ذُلَّتْ والله لهم البحار، كما ذُلَّ

لهم البر، والذي نفس سلمان بيده لَيَخْرُجَنَّ منه أفواجاً، كما دخلوه أفواجاً» أى ليخرجن من النهر سالمين أفواجاً كما نزلوا لُجَّتُهُ أفواجاً، ولقد كان، حيث خرج الجند من النهر بكامل عددهم وعتادهم، لم تضع منهم شكيمة فرس، حتى إن أحد المقاتلين سقط منه قدحه، فعز عليه أن يكون الوحيد بين رفاقه الذى يضع منه شىء، فنادى أصحابه لكى يعاونوه على انتشاله حتى تم له التقاطه من لجة الماء، وهكذا فرج الله كرب سعد وجيشه ببركة هذا الدعاء العظيم، الذى أخلصت فيه النوايا لله، وقال القوم فى صدق: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٩- تفريج كرب أبى مسلم الخولانى عند غزو الروم

إن أبا مُسلم الخولانى، واسمه «عبد الله بن ثوب» هو واحد من خيار التابعين وصالحهم، بل إنه ليعتبر من أشهر عبّاد أهل زمانه وزهادهم، وقد أجرى الله - تعالى - على يديه كثيراً من الخوارق والكرامات، ومنها ما رواه ابن عساكر من طريق إسماعيل بن عياش، عن شُرَحبيل بن مسلم الخولانى: أن الأسود بن قيس تنبأ باليمن (أى ادعى النبوة)، فبعث إلى أبى مسلم الخولانى، فأتاه، فقال: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأتى بنار عظيمة، ثم ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضره، فقليل للأسود: إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، وقد قبض النبى ﷺ واستخلف أبو بكر، فقال أبو بكر: «الحمد لله الذى ألبّنى (أى أبقانى) حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من صنع به كما صنع إبراهيم خليل الرحمن».

ومن المواقف الشهيرة لأبى مسلم الخولانى ما أورده كتب السنة من أن جيش المسلمين فى عهد عمر - رضى الله عنه - قد تعرض لمحنة قاسية وكرب شديد، عندما كانوا متوجهين لغزو الروم، حيث قد اعترضهم نهر دجلة، وهو مانع مائى، تعمل له الجيوش المتقدمة ألف حساب وحساب، سواء أكان ذلك فى الحروب القديمة أم فى الحروب الحديثة، ولقد تصادف مرورهم بدجلة فى

وقت كان فيضانها مرتفعاً، إلى حد أنها كانت ترمى الخشب من مَدَّها، أى من شدة جريان مائها، فاشتد لذلك كربهم، ففكروا فى الأمر وقدَّروا، وكان بينهم هذا التابعىُّ الصالح، أبو مسلم الخولانى، وهو معروف بحسن صلته بالله، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وقد تمثل تفريج كرب هذا الجيش فيما قام به أبو مسلم الخولانى، فقد روى البيهقى، وابنُ عساكر، وأبو داود، وأحمد: أن أبا مسلم مرَّ بين أيدي الجيش، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «اللهم أَجِزْ بني إسرائيل البحرَ، وإِنَّا عبيدك، وفى سبيلك، فَأَجِزْنا هذا النهرَ اليوم» ثم قال للجند: اعْبُرُوا باسم الله، ومَرَّ من بين أيديهم.

وهنا استجاب الله هذا الدعاء، فتقدم الجيش بكامله فعبروا النهرَ فما بَلَغَ الماء بطون الخيل حتى عبر الناس كلهم، ثم وقف أبو مسلم وقال: يامعشر المسلمين: هل ذهب لأحد منكم شىء؟ فَأَدْعُوا الله - تعالى - برده؟ وفى رواية أخرى: «والتفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعو الله؟» حتى إن بعض الجند لما سمع أبا مسلم يقول هذا قد ألقى مِخْلَتهُ عمداً ثم قال: مِخْلَاتِي وقعت فى هذا النهر، فقال له أبو مسلم: اتبعنى، فإذا المِخْلَة قد وقعت وتعلقت ببعض أعواد النهر، فقال أبو مسلم لصاحب المِخْلَة: خذ مِخْلَاتِكَ، فأخذها.

وبهذا فقد فرَّجَ الله كرب هذا الجيش المتوكل على الله لنصرة دينه، وإخلاص عباد الله الصالحين، وحسن توجههم إلى الله - تعالى - وصدق الرجاء.

أرأيت أيها القارئ الكريم، كيف يأتى تفريج كرب المكروبين، وتذليل الصعاب أمام المؤمنين؟! فهكذا يكون المؤمن دائماً معتمداً على الله، متوكلاً عليه، آخذاً بالأسباب، وصدق الرسول الكريم، حينما يوجه الأمة - كلَّ الأمة - إلى الأخذ بهذه الأسباب العظيمة فيقول: «لا تعجزوا فى الدعاء؛ فإنه لن يهلك

مع الدعاء أحدًا فعلى العبد ألا يعجز بحال من الأحوال عن دعاء ربه، وطلب الخير والمعونة منه، فالدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض، اللهم هذه تحركات جوارحنا، مما لا يغيب عنك شيء منها، فكن لها ساترا، اللهم أنت المطلع على خفقات القلوب، وأحاديث النفوس، نسألك أن تستر فلا تفضح، وأن ترحم فلا تعذب.

١٠- تفريغ كرب المسلمين يوم فتح خيبر

إن خيبر مدينة كبيرة ذات حصون كثيرة، ومزارع جيدة، وهى تقع على بعد مائة ميل شمالى المدينة جهة الشام، وكان اليهود يستوطنون هذه المنطقة، ولقد كان السبب الوحيد لغزو خيبر من قبل النبى والمسلمين هو عنادهم عن قبول الحق، وأحقادهم المعتملة فى صدورهم ضد الإسلام، بالرغم من دعوتهم للإسلام بالطرق السلمية هذه المدة الطويلة، التى بلغت سبع سنين من الهجرة، وقد سار إليها النبى فى جيش قوامه ألف وأربعمائة مقاتل، ما بين فارس (أى راكب فرسا) وراجل (أى يقاتل على قدميه) ولقد كان من عادة النبى ﷺ أنه إذا أغار على قوم لم يغر عليهم حتى يصبح، فإذا سمع أذانا أمسك عن قتالهم، وإذا لم يسمع أذانا أغار عليهم، وقد بات رسول الله ﷺ على مشارف خيبر، فلم يسمع بها أذانا، كما أن العمال الزراعيين قد خرجوا قبيل طلوع الشمس إلى مزارعهم، فلما رأوا جيش المسلمين صاحوا: محمد وجيشه، ثم ولوا هاربين، فأحكم أهل خيبر إغلاق حصونهم المحكمة التى أعدوها تحسبا لمواقف الإغارة عليهم، فقال النبى ﷺ قوله الشهيرة: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وقد تمثل كرب المسلمين آنذاك فيما يعلمونه من منعة تلك الحصون، وأن اليهود قد اتخذوا لأنفسهم فيها من الاحتياطات الغذائية والمؤن ما يكفي لصمودهم فترات لا يستهان بها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ (١).

(١) سورة الحشر : ١٤ .

ولما استشعر رسول الله ﷺ والمؤمنون بالله معه هذا الموقف وتلك الشدة ما كان منه ﷺ إلا أن استوقف القوم على مشارف خيبر ودعا بهذا الدعاء الذى يرويه عطاء بن أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن أبى معتب بن عمرو أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: «قفوا» ثم قال: «اللهم ربّ السموات وما أظللن، وربّ الأرضين وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، فإننا نسألك خيرَ هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله. وكان يقولها - عليه السلام - لكل قرية دخلها». بهذه الضراعة، وبذلك المناجاة يتوجه النبى الكريم إلى الله العلى القدير، كى يفتح مغاليق هذه الحصون أمام جند الرحمن، وأن يجعلها غنيمة لهم.

ولقد استجاب الله لضراعة نبيه ﷺ وقد تمثل ذلك - من بين ما تمثل - فيما حكاه ابن إسحاق، وهو أن غطفان لما سمعوا بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلّة، سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهلهم حسّاً (أى سمعوا جلبة أصوات) ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أموالهم وأهلهم، وخلّوا بين رسول الله وبين خيبر.

كما بدأت حصون خيبر وقلاعها تتهاوى حصنا حصنا، فتم فتح حصن «ناعم» وتلاه حصن «بنى أبى الحقيق» وهو الذى كانت تقيم فيه «صفية بنت حى بن أخطب» وهى التى تزوجها النبى ﷺ وكان شعار أصحاب النبى ﷺ فى قتالهم يوم خيبر: يامنصور، أمت، أمت.

وتوالى فتح هذه الحصون التى طالما تطاول أهلها على الإسلام وعلى نبى الإسلام، وطالما دبروا الوقائع والمكائد حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم غنيمة للمؤمنين، بفضل وبركة دعوات النبى الكريم ﷺ.

١١- تفريج واحد من كروب المسلمين في خيبر

لقد تعرض المسلمون أثناء فتح خيبر إلى بعض الشدائد التي جعلتهم يلتزمون تفريجها بدعوات طيبة من رسول الله ﷺ وقد كانت تلك الدعوات هي الوسيلة الفعالة في فتح مغاليت تلك الحصون، فبعد أن تم فتح حصني «ناعم» و «ابن أبي الحقيق»، وهما من الحصون الصغيرة المتواضعة، فقد أبدت الحصون الكبيرة مقاومة ملحوظة، وبخاصة حصن «الصعب بن معاذ» وهو من أشهر وأكبر وأمنع حصون خيبر آنذاك، كما أنه كان الحصن الرئيسى المملوء بالذخائر والمؤن، فهو في تقديرهم وفى تقدير المراقبين المستودع الرئيسى لتلك الحصون، فهو عامر - بل زاخر - بالطعام والودك، وغيرها مما يحتاجه الناس فى معاشهم، وكان المسلمون قد أصابهم الجهد، وليس معهم ما يتقون به على قتال أعداء الله، فما كان من المسلمين إلا أن تقدم بعضهم إلى رسول الله ﷺ - وهم بنو سهم من قبيلة أسلم - فشكوا إليه حالهم، وما نالهم من فاقة وجهد؛ حيث قالوا: يا رسول الله: لقد جُهدنا، وما بأيدينا من شىء، فلم يجدوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه، فماذا يصنع لهم، وماذا يصنعون؟! ومعلوم - كما يقال فى شعارات الحروب-: إن الجيوش تمشى على بطونها، أى: إن الإمداد والتموين هو الشريان الحيوى الدافق الذى يجعلها تصمد، وتتقدم وتحرز انتصاراتها بفضل اعتمادها على الله، وثقتها فى موعوده، فنظر النبى ﷺ إليهم نظرة إشفاق، وأراد أن يعلمهم وجهتهم الصحيحة يوم تشتد الأمور، وتتأزم الأحوال، أنه لا وجهة لهم إلا الله رب العالمين، الذى بيده وحده مفاتيح الفرج، وإجابة المضطر، ونصر المظلوم، ما كان منه ﷺ إلا أن نفحهم هذه الضراعة النبوية الكريمة، والمنحة المحمدية الغالية، فرفع يديه إلى السماء ضارعا إلى الله، لائذا ببابه، قاصداً جنبابه، متبتلا فى محرابه بكلمات ملؤها الصدق والإخلاص، وعتها عقول الأصحاب قبل أن تسمعها آذانهم، وإليك أيها القارئ الكريم هذه الضراعة وتلك المناجاة:

«اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً وودّكا (سَمْنَا)» كلمات غير متكلّفة، فهي ضراعة إلى الله بلسان المقال، المعبر عن لسان الحال، وذلك أبلغ ما يدعو به الداعون، ويتقرب إلى الله به المتقربون، فهو الذي يعلم السر وأخفى.

وقد تمثل تفريج هذا الكرب، وكشف هذا الهم والغم، أن بات الناس ليلتهم مقيمين على طاعة ربهم، مجتهدين في عبادتهم، وفي الصباح رأوا عجباً، فقد فتح الله - عز وجل - عليهم أعظم حصون خبير وأغناها وأمنعها، ببركة هذه الدعوات الكريمة، فتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وهو الحصن الذي يشار إليه بالبنان، فتحه الله على المسلمين بدون أدنى مقاومة أو جهد، وكأن الله قد ألقى في قلوب أهل هذا الحصن الرعب، مصداقاً لقول النبي الكريم: «وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ» فكان في فتح هذا الحصن وسقوطه في أيدي المسلمين تفريج كربهم، وتخفيف معاناتهم.

وهكذا استمر المسلمون في تقدمهم، ومواصلة كفاحهم ضد صلف المادة وغرورها وجبروتها، ضد اللجاجة والعناد، حتى انتهوا إلى آخر معقلين من هذه المعازل، وهما حصنا «الوطيح، والسّاللم» فحاصرهما النبي ﷺ بضع عشرة ليلة، حتى من الله بفتح هذه الحصون جميعاً، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

فانظر - يا رعاك الله - بعين الاعتبار؛ لكي ترى رسول الله ﷺ وهو يستخدم أمضى أسلحة الإيمان إذا تأزمت الأمور، واشتد المضيق، انه سلاح الضراعة والدعاء، الذي يجب على المسلمين أن يستثمروه في وجه طغيان المادة وصلف التقنية، في كل حال وعلى أي حال، فالله قد أمرنا بالدعاء، ووعدنا بالإجابة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) فاستجب لنا ياربنا كما وعدتنا، وما ذلك عليك بعزيز.

(١) سورة غافر : ٦٠.

١٢- تضريح كرب الإمام على يوم الخندق عند مواجهة عمرو بن ودّ

إن الإمام علىّ بن أبي طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - هو ابن عم رسول الله ﷺ وهو ربيب بيت النبوة، فقد تربى فى كنف الرسول الأمين، وكان أول الفتیان دخولاً فى الإسلام، ومن أجل هذا وغيره، فقد كان حبيباً إلى قلب النبى ﷺ حتى إنه ليقول له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى».

وقد أثر عن الإمام علىّ الشجاعة الفائقة حتى فى صباه الباكر، وقد كان النبى الكريم... يعده لغد مقبل تنتظره الدعوة الإسلامية.

ولما كانت غزوة الأحزاب الشهيرة، والتي تجمعت فيها قوى البغى والشر، مستهدفين استئصال شأفة الإسلام وأهله، فلم يكن أمام النبى ﷺ وقد أصبح الخطر يتهدد المدينة المنورة، عاصمة الدولة الإسلامية الناهضة والناضجة بإذن الله - تعالى - لم يكن أمامه من سبيل للدفاع عن المدينة إلا اتباع الخطة التي تسفر عنها مشورة القوم فى هذا الشأن.

وقد تمثلت هذه الخطة فى إقامة خندق حول المدينة كنوع من فنون الحرب الفارسية، وقد أشار بهذا رأى الصحابى الجليل «سلمان الفارسى».

وقد أصبح النبى ﷺ والمؤمنون بالله معه داخل الخندق، والمشركون خارجه، وقد اقتحم جماعة من المشركين الخندق من ناحية ضيقة فيه، وهم يركبون خيولهم، أو كان من بين هؤلاء المغيرين فارس مشهود له بالكفاءة القتالية؛ حيث كان يجيد فن المبارزة بالسيف، وقد بلغ من شدته أنه كان إذا وقف على النطع، وحاول القوم زحزحته عنه لم يستطيعوا لذلك سبيلاً، حتى إن النطع ليمزق قطعاً صغيرة إلا موضع قدميه، وما يستطيعون زحزحته عنه، والنطع هو جلد البعير، ذلكم الفارس هو «عمرو بن عبد ودّ» فأخذ هذا المشرك يوبخ المسلمين، ويتهكم بهم قائلاً: أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم فسيدخلها؟ أفلا تبرزون لى رجلاً؟!

وهنا ثارت دماء النخوة فى صدر على ، وازدادت ثورتها حينما لم يجب أحد من معسكر المسلمين ذلك العمرو ، فقال لرسول الله ﷺ : أنا له يارسول الله ، فقال له النبى : اجلس إنه عمرو ، فقال : وإن كان عمراً : فأذن له الرسول وأعطاه سيفه ذا الفقار ، وألبسه درعه الحديد ، وعممه بعمامته وقال : «اللهم أعنه عليه ، اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين» .

فتقدم إليه على فى ثقة الواثق بالله ، وأعاناه الله عليه فقتله ، وعاد ظافراً منتصراً ، ففت مقتل عمرو فى نفوس أصحابه ، ولما عاد على إلى رسول الله ﷺ قال له : كيف وجدت نفسك معه يا على ؟ قال : وجدت أن لو كان أهل المدينة فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم .

وبهذا يتضح لنا أن الكرب الذى لحق بعلى من جراء هذا التهديد قد فرجه الله عنه ، ومنحه القوة والثبات ببركة دعوات النبى الكريمة له بالعون والنصر ، وأن المسلم حينما يعقد العزم على فعل الخير ونصرة دين الله فى أى موقع ، فإن عون الله يكون حليفه ، ويأتيه الغوث والمدد من حيث لا يدرى ولا يحتسب .

فكن اللهم لنا ولا تكن علينا ، وفرج عنا كل شدة وكرب يا أرحم الراحمين .
